

التائب عن أكل السّمك*

الجاحظ

اشترى محمد بن المؤمل مرة شَبُوطاً^(١) وهو ببغداد. وأخذها فائقة عظيمة، وغالى بها، وارتفع في ثمنها. وكان قد بعدُ عهده بأكل السمك، وهو بصري لا يصبر عنه، فكان قد أكبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولسمّنها وعظّمها، ولشدة شهوته لها. فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبيها، وحسر عن ذراعيه وصمّد صمّدها^(٢)، هجمت عليه ومعى السدري^(٣). فلما رآه رأى الموت الأحمر، والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضي، ورأى قاصمة الظهر، وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين.

فلم يلبثه السدري حتى قوّر السرة بالمبال^(٤). فأقبل عليّ فقال لي: يا أبا عثمان! السدري يعجبه السرر! فما فصلت الكلمة من فيه، حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً. فأقبل عليّ فقال: والسدري يعجبه الأقفا! فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله. فقال: يا أبا عثمان! والسدري يعجبه المتون! ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشَبُوط وعذوبة لحمه؛ وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض. فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً. ولولا أن السدري أبطره^(٥) وأثقله وأكمدته وملأ صدره وملأه غيظاً، لقد كان أدرك معه طرفاً، لأنه كان من الأكلة. ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه.

فلما أكل السدري جميع أطايبيها، وبقي هو في النظارة^(٦)، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم^(٧) الثقيل، ظن أن في سائر السمكة ما يُشبعه ويشفي من قَرَمه^(٨). فبذلك كان عزأؤه، وذلك هو الذي كان يمسك بأرقاه وحشاشات نفسه. فلما رأى السدري يفري الفري^(٩) ويلتهم التهاماً، قال: يا أبا عثمان! السدري يعجبه كل شيء! فتولد الغيظ في جوفه، وأقلقت الرعدة، فخبثت نفسه. فما زال يقيء ويسلّج. ثم ركبته الحمى.

وصحّت توبته، وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغيباً^(١٠) أبداً ولا زهيداً^(١١)، ولا يشتري سمكة أبداً، رخيصة ولا غالية. وإن أهدوها إليه أن لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمساها.

الهوامش:

- * من كتاب: البخلاء للجاحظ، تحقيق طه الحاجري، طبع دار المعارف ص ٨٨.
- (١) الشَبُوط: نوع من السمك النهري، دقيق الذنب، عريض الوسط، صغير الرأس.
- (٢) صمّد: قصد؛ وصمّد صمّدها: قصد قصدها، أي: نحا نحوها.
- (٣) السدري: هو أبو نبرة، محمد بن هشام بن أبي خميسة. شاعر بصري صغير من شعراء العصر. كان يصحب الجمّاز وعبد الصمد بن المعتز والجاحظ وأبناء البصرة، وصحب الأصمعي وروى عنه. انظر التعليقات والشروح في كتاب البخلاء ٣٢١.
- (٤) المبال: لعله يريد مكان البول.
- (٥) البطر: الدهش والحيرة.
- (٦) النظارة: القوم ينظرون إلى الشيء.
- (٧) الغرم والغرامة: ما يلزم الرجل أداؤه، ضد الغنم - غرم - يغرم.
- (٨) القرم: شدة شهوة اللحم (قرم - يقرم - قرماً).
- (٩) فري: شقّ. والفري: الأمر العظيم؛ وفري الفري: أتى بالعجب (كناية).
- (١٠) الرغيب: الواسع الجوف من الناس وغيرهم؛ ويقال: هو رغيب البطن، أي: يكثر من الأكل.
- (١١) الزهيد: القليل الأكل.